في تعريف الرأسمالية

بقلم الاستاذ عمر كركوكي

ما كان الخلاف في المذاهب في هذا العصر ليقتصر على الاشخاص ، ولا ليمكث في ميدان من الميادين . بل انه تجاوز الاشخاص الى الجماعات ، والجماعات الى الدول ، وانتقل من ميدان الجدل الى ميدان العمل ، وتجاوز الميدان العملي الى ميادين السياسة وساحات الحروب . ولعل اهم موضوع شغل بال ابناء هذا الجيل ، جيل تعدد المذاهب وتعصب انصارها لها تعصبا شديداً موضوع الرأسمالية . فاخذ الناس يتخاصمون من اجلها وكل يدعي انه مدرك لها قائم لحقيقتها قادر على الخوض فيها . ولو شئنا ان ننقل على هذه الصفحات صوراً من صور الجدل في الرأسمالية لضجر منا السامع وملنا القاريء وخلقنا في الجو غيوما جديدة تحوم حول هذا البحث الخطير وما كان لنا ان نحيط به وان نلم بجميع اجزائه وهو كثير الشعب متعدد النواحي ، وان الوفاء كل الوفاء للبحث العلمي ان نقتصر على جزء بسيط وان نحصر بحثنا في ناحية جزئية من النواحي في كل مقال علنا نقوم بواجبنا نحو العلم ونخدم الحقيقة كما تقتضي روح المعرفة العلمية . لذا رأينا ان نبدأ بتعريف الرأسمالية وان نبحث الآن التعريف لوحده ، والله الموفق الى الصواب

ما كانت الرأسمالية لتكتفي بتعريف واحد او بتعريفين فهي تود ـ شأن سائر المسائل ـ ان تغزو الأفكار وتشتت الآراء في تعريفها ، حتى ان الرأسماليين انفسهم اختلفوا فيه وتفرقوا شيعا في تحديد عناصر النظام الرأسمالي . وما ادري كيف استطيع ان اعرف الرأسمالية ولم اوت من العلم الا اقل قليله ولم احظ من راس المال سوى لسان اتكلم به ، وراس المال كما تعلمون مقدار من المال يجمع للتجارة ، او آلات وادوات تستعمل في المصانع ، او ارض وبذور واشجار تستثمر في المزارع ، على ان كل ما استطيع عمله هو ان اعرض لاهم التعاريف التي اطلعت عليها وان احاول بيان وجوه قربها او بعدها من الواقع

قال بعضهم يعرف الرأسمالية : من المعروف ان راس المال هو احد عناصر الانتاج الثلاثة : الطبيعة العمل ورأس المال ، وهو بالنسبة الى وظيفة العضوين الاخرين يسد حاجاتنا بصورة غير مباشرة لانه يشمل الالات والادوات وكل ما يستعمله المرء ـ الى جانب ما هيء له من الطبيعة والى جانب عمله ـ في سبيل الانتاج ، فنموذج راس المال هو الآلة ، وبناءاً على هذا كان كل نظام فيه اوائل نظاما رأسماليا ، وكانت الرأسمالية هي النظام الاقتصادي الذي يستعمل الآلات .

ولكن نظرة فاحصة الى هذا التعريف ترينا انه ضل طريقه من حيث بدأ ان الآلة موجودة في كل عصر وفي كل النظم بما فيها النظم الاشتراكية بدليل ان روسيا الشيوعية بلد صناعي كبير يضم كثيرا من الاوائل والادوات وكروس الاموال ، وكلها تستعمل في الانتاج ، فلا حاجة اذن للتفكير في اهمية هذا التعريف .

وقال حملة لواء التعريف الثاني : الرأسمالية هي النظام الاقتصادي الذي يكون فيه الانتاج للصناعات الكبرى بصورة لا يبيع معها صاحب المعمل انتاجه مباشرة بل يتولى ذلك وسطاؤه وعملاؤه فيبيعون الانتاج للمشتري في مخازنهم وينقلون الثمن الى المنتج بعد حسم العمولة لقاء اتعابهم فالنظام الرأسمالي هو ما يسميه العامة نظام « العمولة » او بتعبير علمي نظام « التبادل المركب » المبني على كون التبادل فيه غير مباشر اذ تعطى البضاعة للمشتري والثمن للمنتج عن طريق الوسيط .

يستطيع هذا التعريف ان يعلل لنا لِمَ كثرت الصناعات الكبرى ولم مشت الرأسمالية في هذا العهد . على ان تعليله هذا وان كان في بجزء يسير من الغرض ، ليس جامعاً ولا مانعاً فهو ليس جامعاً لان التبادل المركب لا يوجد في البلاد الرأسمالية فحسب بل وفي البلاد الاشتراكية ايضا وليس هو بالمانع لانه لا يمنع ان تلجأ الصناعات الصغيرة الى طريقة التبادل المركب فيبيع الصانع منتوجه عن طريق غيره . لذا لا نستطيع ان نقبل التعريف الثاني هذا ، فلنأت الى التعريف الثالث

يقول اصحاب هذا التعريف : ليست الرأسمالية نظام الآلات ، وليست نظام التبادل المركب ، وانما هي النظام الذي يمتاز بوجود العمال المأجورين لحساب الغير فلا يشتغل

العامل لنفسه ، ولا يبيع ثمرة عمله بل يقبض لقاءها اجراً من رب عمله ، خلافا لما كان في العصور الاولى والوسطى حيث كان الصانع يبيع مايصنع ويتناول ثمنه .

ان في هـذا التعريف الثالث خطئان تاريخي ونظري فنحن نجد من جهة اولى ان مسألة الاجر والمأجورين كانت موجودة في نظام الاصناف في القرون الوسطى في اوروباوقد اعيد تطبيق هذا النظام في الفاشستية في هذا العصر .

ونرى من جهة ثانية ان المؤسسات الحكومية — وهي مؤسسات اشتراكية اجتماعية وليست رأسمالية — تستأجر عمالا وتشغلهم ، فنظام الأجر والمأجورين اذن نظام يستقل عن الرأسمالية وليس ميزة لها ومن هنا كان هـذا التعريف لايرضي .

وقال اولوا العلم من انصار تعريف رابع : الرأسمالية مبدأ يمتاز بمظهرين : مظهر اقتصادي يضم رؤوس اموال ضخمة ومظهر حقوقي يشمل الملكية الفردية ويرعاها لذا كان امتلاك الفرد للآلة ميزة النظام الرأسمالي الخاصة .

هذا اقرب التعاريف الى الواقع ، الا انه لايخلو من نقص . ماهي الملكية الفردية ؟ انها ليست محدودة ، وان هذا التعريف نفسه لا يحددها ، وللتملك عدة درجات ، ولتاريخ الملكية الفردية تطور له اهميته .

لقد وجدت الملكية الفردية في انظمة ومذاهب عديدة الا ان هـذه المذاهب تختلف على تحديدها . فالملكية في عهد الرومان كانت مطلقة اطلاقا تاما وكان المالك يتصرف بملكه كيف يشاء وليس لاحد سلطان عليه ، وكذلك كان الامر في اوزبا في العصور الوسطى . اما الاسلام فقد نظر الى الملكية على انها حق للفرد يتمتع به ضمن حدود القواعد الاجتماعية والمنفعة العامة فعليه ان يتقدم بزكاتها وقت السلم وان يقدم منها مايفرضه عليه واجب الجهاد وقت الحرب وان لا يضر غيره بتصرفه بها وان لايعتدي على حرية الآخرين من اجلها . وكذلك نرى ان الدول الحديثة تراعي مصلحة الدولة في التصرف بالملكية فتفرض ضرائب على الارث وتهتم بالمزارع والمدن وبضرورة تجميلها والنظر الى مظهرها العام حين البناء وحين استعمال الملك والعقار .

من هذا نرى ان الملكية الحديثة بعدت عن الملكية القديمة وقيدت حدودها وحصر مفهومها واصبحت تعرف كوظيفة اجتماعية لا غير — في بعض المذاهب وفي بعض الامم على الاقل — واصبح للحكومة سلطة على الملاك والرأسماليين وانفسح المجال امام الاقتصاد الموجه .

وكل هـذا يبين نقص التعريف الرابع . والآن بعد ان استعرضنا اهم التعاريف التي اعطيت للرأسمالية ويبقى نصيب كل منها ، من الصواب ومن الخطأ ، فهل عسانا نصل الى تعريف صحيح ؟ واذا كان ذلك كذلك فما عساه يكون ؟ .

قالوا لعل الخطأ في كل تلك التعاريف انها نسيت ان للعنصر النفسي دوراً هاما يقوم به في الحياة الاقتصادية وان للنفسية الاقتصادي اثراً كبيراً في اعماله ومشاريعه وانتاجه وتجارته . لذا كان لزاما علينا حين نريد ان نفهم روح الرأسمالية ان ندرك قيمة الهدف ، والدافع الذي يدفع رجل الاعمال للعمل ، والحقيقة ان هـذا الدافع وذلك الهدف هما اللذان يعرفان الرأسمالية . قال سومبارت :

للحياة الرأسمالية اتجاهات ثلاثة او عناصر ثلاثة العنصر الاول هو حسن الكسب ، الكسب الموضوعي وغير المحدود الكسب للكسب لاشيء آخر .

والعنصر الثاني هو حس المزاحمة في سبيل الكسب المزاحمة التي لا تعرف قيداً ولا تتحدد بحد ، فالاسواق الرأسمالية هي اسواق حرة مثالية في مزاحمتها ولا تخضع لأي تأثير ولا لتوجيه اي سلطة .

والعنصر الثالث هو روح الحساب الذهني ، الحساب الذي يهتم بكل شيء في سبيل الانتاج فيقلل منه ما امكن ، ويقلب عديد الأوجه ويلجأ لجميع انواع الرياضة الذهنية والحساب لتقليل كلفة الانتاج وغرو اكبر عدد ممكن من الاسواق والحصول على اعظم كمية من الربح .

الرأسمالي رياضي ، جسماً وعقلا ، الرأسمالي مجازف يقامر بكل شيء في سبيل الربح ، همه ان يشتغل ، وان يكون حراً في عمله ، وان الربح بغيته ان ينجح في مغامرته الاقتصادية لاشيء سوى النجاح والربح .